

الذي به سُرت . وهكذا كانت الشهادة على إلهية يسوع المسيح والمكافأة لتواضعه. وهنا رسم سرّ المعمودية، وانعم به على سابقه الذي كان أول من شرفه بلقب ابن العلي بالتبني. وتوجه يسوع إلى الصحراء يرافقه ملائكته الذين كانوا يخدمونه، ويترنمون بتسابيحه، إلى مكان يقع بين بعض الصخور القاسية، حيث كان يوجد مغارة معزولة جداً قد اختارها لتكون مسكنه. فسجد ووجهه إلى الأرض لأنه هكذا يفعل هو وأمه كل مرة قبل ابتداء الصلاة. فشكر الله الذي انعم عليه بهذه الخلوة، وتابع صلاته العقلية وذراعه مبسوطان بشكل صليب. وكان هذا عمله العادي الذي كان خلاله يتعرق دماً بعض الأحيان. وأضاف إلى ذلك صومه أربعين يوماً تكفيراً عن الرذائل التي كان يصلحها أيضاً بممارسة الفضائل المعاكسة. وأقبلت وحوش مفترسة تتعرف بخالقها وسرب من العصافير تسلم عليه بفرح بأنغامها الشجية.

وكانت أمه الكلية القداسة تبعث إليه بالتسابيح، وما أن توجه بطريقه نحو الصحراء حتى أغلقت أبواب بيتها وانزلت في مصلاها، حيث بقيت أربعين يوماً بدون طعام، وهكذا كانت تقندي بابنها وبجميع أعماله وصلواته وركعاته وسجداته إلى حد الثلاثمائة مرة في اليوم، وفي نفس الوقت الذي كان يقوم بها هو بنفسه لأنه كان كما قيل آنفاً، بأن كان لها أنعام القراءة في نفس يسوع حتى في أثناء غيابه، وأعماله الجسدية كانت تُكشف لها برؤيا روحانية أو بايحاء من الملائكة الذين كانوا سعاة بريد بينها وبين ابنها الإلهي.

ما هي كل الخلائق بالنسبة إلي من دونك؟

كان الملائكة يستجيبون لرغبة ملكتهم ويعلمونها بأنوار داخلية عن أعمال المخلص، سواء كان يصلي أو يعلم الناس أو يعزي اليأساء. وكانت تكلفهم أحياناً بزيارته من قبلها، وإعطائه قماشاً منسوجاً بيديها ليمسح عرقه الدامي، وقليلاً من الطعام ولكن لم يكن ذلك أبداً أثناء صيامه الأربعيني. وكانت تؤلف أحياناً تسابيح تترنم بها بالتناوب معهم وتصنع أفعال على مثال ابنها.

وكانت تحصل غالباً انخطافات يخط الرب أثناءها في نفسها، كما على قطعة قماش محضرة جيداً، التفاصيل الأكثر عجباً من كمالاته غير المتناهية. هذه النعم لم تكن لتمنعها من الشعور بألم حاد وإن تتألم بالأكثر بالاتحاد مع الفادي. بعد أن ترك الناصرة توجه السيد بطريقه إلى الأردن، وهو ينشر سرّاً النعم على النفوس والأجساد. وقبل أن يقترب من سابقه يوحنا الذي كان يعمد على ضفاف النهر بالقرب من بيت عنيا، ملأه بنور عظيم وفرح عجيب، مما جعله يصرخ: أن مخلص العالم هو قريب مني. وبينما كان بين الجموع طلب منه يسوع العماد فحصل عندئذٍ على رؤيا عقلية تقبل خلالها أنواراً جديدة على سرّ الفداء وعرف الكلمة المتجسد. فسجد أمامه وقال: أنت يا سيدي عليك أن تعمدني، ومع ذلك تريد مني أن أعمدك !

وما أن اعتمد يسوع حتى نزل الروح القدس على رأسه بشكل حمامة وسمع صوت الرب يقول: هذا هو ابني الحبيب

